المحاضرة الثانية: المراحل التطورية للاتصال

يعد الاتصال من أقدم وأهم العمليات الإنسانية التي تطورت مع تطور المجتمعات البشرية. وقد مرّ بمراحل مختلفة تعكس تطور وسائل التعبير والتواصل بين الأفراد. يمكن تصنيف هذه المراحل إلى خمس مراحل رئيسية، وهي:

1. مرحلة الاتصال الإشاري أو الرمزي (مرحلة ما قبل اللغة):

تُعتبر هذه المرحلة البداية الفعلية لعملية الاتصال، حيث كان الإنسان البدائي يعتمد على الإشارات الجسدية، وتعبيرات الوجه، والإيماءات، والأصوات غير اللغوية للتعبير عن حاجاته ومشاعره. كما استخدم الرموز البصرية مثل النقوش والرسومات على الصخور لنقل المعلومات بين أفراد الجماعة.

تميزت هذه المرحلة بأنها كانت محدودة التأثير، حيث لم يكن بالإمكان نقل الأفكار المجردة أو توثيق المعلومات للأجيال اللاحقة. رغم ذلك، شكّلت الأساس الذي انطلقت منه المراحل التالية من تطور الاتصال.

2. مرحلة الاتصال اللغوي (الشفهي أو الخطابي):

مع تطور القدرات العقلية للإنسان، نشأت اللغة المنطوقة كوسيلة أكثر تعقيدًا للتواصل. أصبح البشر قادرين على التعبير عن أفكارهم بشكل أكثر دقة، مما أدى إلى ظهور الخطابة كأداة مؤثرة في المجتمعات القديمة، خاصة في اليونان وروما، حيث برز فن الإقناع والخطابة العامة.

اتسمت هذه المرحلة بميزة رئيسية وهي إمكانية نقل المعرفة والخبرات بين الأجيال، لكنها بقيت محدودة بضرورة وجود الأشخاص في نفس المكان والزمان للتواصل الفعّال.

3. مرحلة الاتصال الخطابي:

مثّلت الكتابة تحولًا جذريًا في تاريخ الاتصال، حيث مكّنت من توثيق الأفكار والمعلومات ونقلها عبر الأجيال. بدأت هذه المرحلة مع اختراع الكتابة المسمارية في الحضارات السومرية، والهيروغليفية في مصر القديمة، ثم تطورت لاحقًا إلى الأبجديات الأكثر تطورًا.

ساعدت الكتابة في نقل العلوم والمعارف، وتوسيع نطاق التواصل، حيث لم يعد مقيدًا بالزمان والمكان كما في الاتصال الشفهي. كما أدى إلى ظهور السجلات الرسمية، مثل العقود والوثائق الحكومية، مما ساهم في بناء أنظمة إدارية متطورة.

4. مرحلة الاتصال الطباعي أو الجماهيري

مع اختراع الطباعة على يد **يوهان غوتنبرغ** في القرن الخامس عشر، حدثت ثورة في مجال الاتصال. أصبح بالإمكان إنتاج الكتب والصحف بكميات كبيرة، مما أدى إلى انتشار المعرفة وزيادة الوعي الجماهيري.

ساهمت هذه المرحلة في ظهور الصحافة المطبوعة، التي أصبحت أداة رئيسية لنقل الأخبار والمعلومات السياسية والاجتماعية، كما مهدت الطريق لنهضة فكرية كبرى في أوروبا. تميز الاتصال في هذه المرحلة بأنه أصبح أكثر تنظيمًا وموجهًا للجماهير، حيث كانت وسائل الإعلام المطبوعة المصدر الرئيسي للمعلومات.

5. مرحلة الاتصال الرقمي

مع ظهور التكنولوجيا الحديثة، انتقل العالم إلى عصر الاتصال الرقمي، حيث أصبحت المعلومات تُنقل عبر الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي، والهواتف الذكية. تتميز هذه المرحلة بالتفاعلية، حيث يمكن للأفراد التفاعل الفوري مع المعلومات، وإنتاج المحتوى بأنفسهم دون الحاجة إلى مؤسسات إعلامية كبيرة.

أدى الاتصال الرقمي إلى تجاوز جميع قيود المراحل السابقة، حيث أصبح الوصول إلى المعلومات سريعًا ومتعدد الوسائط، إذ يجمع بين النصوص، الصور، الفيديوهات، والصوتيات. كما أدى إلى تغيير جذري في أنماط التواصل الاجتماعي والثقافي والسياسي، مما جعل العالم أكثر ارتباطًا من أي وقت مضى